فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية

١٨ – تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا

فريدريك نيتشه

للأستاذ خليل هنداوي

الآن تبين لنيتشه أن هاوية سحيقة تفصل بينه وبين شوبنهاور وفاجنر ، وقد تقبل مذهب التشاؤم من قبل ليتخذه سلاحاً يصرع به التفاؤل الخادع ، وقد بدا له أن نقد الوجود نقداً مصحوباً بالتشاؤم هو من واجب كل نفس خالصة ، ولكنه لم يتقبل تلك النتائج السلبية التي استخلصها شوبنهاور من نظراته ، ولم يتقبل العدم وسلب الحياة كغاية منشودة في الوجود . ولكن هذا للذهب العدمي الذي يستمر فيه الخطر ، قد لا يكاد يقل مذهب التفاؤل المطلق عنه خطراً ، فان جيلنا إذا نمت فيه الروح الراضية القانعة والقناة الخانعة ، كان هـذا منه علامة الوهن والضعف والانحطاط . تنشأ في جيـل تعب من الحياة وتصدع من الألم ، ويرتاح إلى الراحة المتمثلة في العدم ، وهكذا بدرت لنيتشه مسألة جديدة شغلته طيلة حياته . . . ما هو منشأ هذا الانحطاط الحديث ؟ ماهي العلامات التي ساعدت على نشره . وما هو داء المدنية ؟ وما هو دواؤه ؟ ولم يكد يبلغ هذه النقطة حتى وجد أن حكمه على ذينك المليمين قد تحول من الـكل إلى الـكل . وإذا برفيقيه اللذين كانا عدته في مكافحة التفاؤل يغدوان خصمين عنيفين له تثقل عداوتهما عليه وعلى المجتمع . وأدرك في النهاية أن ثباته على صداقتهما فيه خطر عليه كبير ، فاذا لم يبرأ من هـذه الصداقة ويخلص من تأثيرها ومرضها فانه لن يتاح له أن يقف أمام نفسه واعياً همسها فاهماً نجواها لابساً لباسها ، ولن يتاح له أن يأتي الناس بانسانه الـكامل الذي أوحته اليه تماثيله الجبارة فيما درس من عبقريات اليونان ، فنفض عنه هذه الزخارف الصبيانية التي يتحلى بها أسلوب « فاجنر » ووجد فيه ذلك الدليل الأمين الذي ينفع للفكر الذي يبغي أن يدرس هذه النفس وينحدر إلى أعماقها . فهو اعتنق مذهب « فاجنر » بادئ ذي بدء ليصل إلى هذه النفس . والآن يحاول أن ينجو من حبائل هذا الساحر . « إن ما يشغلني الآن هو الشفاء . . . لم يكن « فاجنر » إلا علة من عللي » . . على أن الأندية الأدبية قد ارتاعت لهذا الانقلاب وهذه المفاجأة . وأجمعت كلها الحملة على نيتشه العقوق الذي رأت فيه الناكث للعهود . وأخذت الأندية تبحث بتأويل شتى لمعنى هذا الانفصال . وكلها أزمعت القول بأن نيتشه كان في الحالة الأولى خير من تفهم « فاجنر » ووقف على دقائق مذهبه ، وكان تحليله الأول له خير ما أخرجه ناقد محلل عن هذا الفنان . وعللت بأن ما عراه من مرضه العقلي الذي ساقه إلى قطع علاقاته مع المجتمع ، هو الذي ساقه إلى التنكر لأصدقائه ، ولـكن هذا التعليل تعليل فاسد يفسد على الرجل كل فلسفة ، وهو الذي كتب نظراته وأعطى مذهبه حراً مفكراً مختاراً . لم يكن مجنوناً ولا مخبولاً يوم طعن « فاجنر » ونال من مذهبه . أما أصدقاء نيتشه فهم يعزون ذلك إلى انخداع نيتشه بهذا الفنان . وهنالك آراء تقاربت تجيء طوراً مع نيتشه وتارة عليه . أما الذين عقتوه فهم ينقمون منه هـذه الشخصية أو هـذه الأنانية التي قادته إلى نكران الصداقة ، زاعمين أن شخصيـة نيتشه لا تود أن ترى ظلاً لشخصية غيرها ، وشخصية نيتشه في الحقيقة شخصية ذاتية قوية ، لأن الرجل يرى أن الشخصية هي كل شيء ، يُضحي في سبيلها بكل شيء ولا يُضحَّى بها في سبيل أي شيء . فوجد نيتشه أن شخصيته تكاد تفنى في شخصية « فاجنر » وهو الذي التصق به واتصل لمجرد الوصول إلى نفسه وتفهمها . ولم يجعل منه رسولاً هادياً ولا مثلاً سامياً . . وهكذا أخذت هذه الشخصية الثالبة تضيّق عليه ويضيق بها ، وتخفي صوته الحقيق ، فليضحّ بكل شيء في سبيل ذاته . ولعل نيتشه أدرك أن القوم سيختلفون في تعليل هذا الانقلاب فكتب هـذه الرسالة التي تنطوي على سفاته ولون تفكيره . « كنا صديقين غريبين . . . . . كنا كركبين . كلاهما له غايته وله سبيله . . . . قد نتلاقى ونرفع أعلام اللقاء كما فعلنا . . . وفي هذه اللحظة ذاتها قد رسا المركبان في مرفأ واحد ، يغمرها شـعاع واحد ، كأنهما مقدمان على هدفهما ، وكأن هـذا الهدف واحد عندهما ، ولـكن الضرورة التي لا تُدفع قد تقذف بمركبينا قذفة جديدة نحو بحار مختلفة وأنواء متباينة . وقد نتراءى ولـكن لا نتلاق . كم لوحتنا الشمس والأمواج ! نظل غريبين لأن الشريعة الثالبة تريد ذلك . .

ولكن صداقتنا القديمة تبقى شيئاً قدسياً . . . وهكذا نريد أن نؤمن بصداقتنا « في النجوم » حتى في العهد الذي يجب أن نكون فيه خصمين على الأرض »

أليس في هذه الكلمة ما يجعل نيتشه بريئاً شريفاً بإزاء خصميه وأنصار خصميه ؟

نيتشه الفيلسوف !

— ١ —

لم تكن نهاية عمر نيتشه إلا معركة متصلة الأسباب ، يشنها صاحبها على الداء الذي خامره ، يصرعه حيناً وحيناً يصرعه . وهو خلال ذلك يطول صراعه وعند نزاعه ، يحول الداء بينه وبين اتمام عمله الذي تصدى له ، ولا يشعر بالمجد الذي صار يركض اليه في أصقاع العالم

هذه الفلسفة الغريبة الشاذة قد شك عند مناقشتها النقاد الذين لم تتسع لها عقولهم ، فقالوا عنها : إنها فلسفة طائشة جاءبها مجنون ، قد تمخض بها الجنون فناً من قبل ! وهؤلاء قد ظلموا الرجل ميتاً كما ظلمته الطبيعة حياً ، على أن شذوذ هذه الفلسفة لا يدعو إلى حسبانها فلسفة مجنونة ، فقد كتبها صاحبها واعياً وغالب بها ألمه قبل أن يستحيل إلى جنون ، ومهما ذهب النقاد في تعليل جنون نيتشه : أهو جنون اكتسابي أم وراثي ، فان الرجل قد استطاع بما أوتي من عبقرية سامية أن يحدث في صفحة الحياة أمواجاً عنيفة بالحجر الذي ألقاه . وبهذا لا ينبغي لنا أن نعتقد أن الجنون أثر في آثاره وهو الذي دل على وعي خارق في أحد نوباته وأعنف آلامه

— ٢ —

أراد نيتشه آلامه ، وعمل على تحملها غير مستثقل ولا مستضعف ، يحولها إلى الحاجة التي يريدها ويستخلص منها ما يلائم حياته . فاذا لم يكن هذا الرجل جديراً بالرأفة والشفقة لأنه لا يريدها ؛ فهو جدير بالاحترام . والبطل يحترم مستلئماً ومكفناً

أول نعمة احتسبها للألم أنه أنقذه من مهنة التعليم ودراسة اللغات المندثرة ، إذ أخذ يحس أن هذه المهنة برغم شرفها لا تتلاءم والغرض الذي تتوق إليه روحه . فهو فيلسوف قبل أن يكون عالماً بدراسة اللغات . وأخذ يشعر بأن وفاءه لهذه المهنة دفعه إلى قتل أزهى أيامه وتعطيل دراساته ، فما أثقل اليوم على ظهره هذه الاعباء ! فجاء الداء وأجبره على تحطيم كل حلقة تربطه بالماضي الذي أصبح بعده غريباً عنه وهو منه براء فبدل حياته بحياة ثانية تختلف مظاهرها ، وألقاه في عزلة عميقة لا يقر فيها إلا إلى نفسه لأنها حرمت عليه الانكباب على المطالعة والانصراف إلى الدرس . فهو اليوم وحيد مع نفسه ، أمام نفسه . يسمع نداء من كان في أذنه وقر عنها . فرحت اليوم نفسه بعودته إليها ، بأوبته إلى العزلة والراحة الخالدة : هذه النفس التي كادت تقتلها الحادثات وتطغى عليها جبلة المجتمع قد نفضت عنها الأكفان ورفعت صوتها الرنان « ما تذوق يوماً من السعادة ما تذوقه خلال أيام داؤه لأنه عاد إلى نفسه . وهذه العودة إليها كانت شفاءه . وهذا الشفاء يتلوه شقاؤه المادي »

على أن الداء لم يزد نيتشه إلا احترازاً في النظر إلى مسائل الكون والحياة ، وهو عاكف على التطلع إلى هذه المبادىء الفلسفية ، ولكن يراها بمجموعها جملة مبادىء هي حقائق بعينها ؛ اطلع اليها كأنها ابنة طبع مبدع وشخصية مبدعة ، ومما ينبغي أن ينظر اليه بعين الاعتبار مسألة تأثير الصحة والسقم في العقل البشري ، فاذا تألم جسدنا — وهو العقل الأكبر — فالعقل الصغير لابد متأثر بما نزل بالعقل الكبير ، وإذ ذاك يسأل السائل : هل هذا المذهب علامة من علامات صحة صاحبه أو انحطاطه ؟ وقد أيقن نيتشه بأن السقم زاده احتراساً وانتباهاً من سلطة الأخيلة والأوهام التي تتولد عادة عند من راقت لهم صفحة الحياة وبهجة الدنيا « بلى ! انني أدرك أن الألم لا يحمل الانسان إلى المقام الأحسن ، ولكن الألم ينحدر بنا إلى أعماقنا ! » والانسان الذي يريد أن يناضل ما ينتابه من قلق جسماني متسيطر ينبغي له أن يفرض على نفسه قوة يقهر بها نفسه ، تخرج منها ارادته المتمرنة ظافرة كما يصنع الهندي المستسلم لألوان من العذاب ، أو أن يستسلم لزهد مطلق واعتزال كامل وهجر للارادة ، والانسان الذي يتمكن من هذا الامتحان يقضيه من غير ضعف ، يتعلم منه أن يتأمل مسائل الحياة بوضوح وجلاء ، لا يخدعه عن حقيقتها شيء ؛ فهو يأبى أن تصرفه عن حقيقة الوجود هذه التشابيه والخزعبلات المترية ، وكأن دافعاً للانتقام والثأر من الحياة يتحرك في طوايا نفسه ، يريد أن يستبدل بها آلاماً تتولد له حين

يقابلها وجها لوجه يميط عن وجهها النقاب . وينزع كل زينة خادعة تتبرج بها لاغواء الناس ؛ وهو إذا أحب الحياة بعد ذلك فانه يحبها كالعاشق الغيور المتحرز ، حبك لامرأة خدعتك وأصبحت مثار الشك عندك

يلاحظ نيتشه أن الألم هو الذى جعله متفائلاً ، والسقم قد علمه ما يبلغ تأثير الانحطاط الجسمانى فى عقل المفكر ، ولاحظ به كيف يسمى الألم إلى قهر عزة العقل الفلسفى ورد هذه العزة ضعفاً وذلة وحزناً وكآبة . وأدرك ما هى المواضيع والزوايا السماوية التى يلجأ اليها عقل المرضى والمنحطين سعياً وراء ما يخفف عنهم من قلقهم وكآبتهم . وأدرك بعد هذا كله أن كل فلسفة تضع السلم فوق الحرب ، وكل فضيلة تعطى للسعادة تحديداً سلبياً ، وكل علم من علوم ما وراء الطبيعة يرى أن فى مراحل الاعتدال والراحة التامة والأمل الدينى فى عالم خير من هذا العالم ، وفى برزخ غير هذا البرزخ ، يرى فى هذا كله حداً للرفعة والسمو ؛ إن هذه الفلسفة مهما كانت مظاهرها فهى تحمل طابع الفساد والانحطاط ؛ وآمن بأنه فهم أن كل هذه المذاهب الداعية إلى التشاؤم والركون المطلق تدل على أن أصحابها الواضعيها كانوا فى حالة مرض عضوى ؛ ولما أراد هذا المريض أن يشفى ركن إلى التفاؤل ؛ وقد نفعته أيام البلاء بالوقوف على أسباب التشاؤم ، فانصب على الداء بكل ما يحوى جسده ونفسه من عزم ، يقاومه فى معركة لاهوادة فيها ولا رحمة ، وبقوة روحه قد انتصر فى عالى جسده ونفسه ؛ عاد متفائلاً ، وعادت اليه العافية ، « ألا إننى اكتشفتُ حياة جديدة ؛ اكتشفتُ نفسى . إننى قد جرعتُ الأشياء الكبيرة كما رشفت الصغيرة منها ، وجعلتُ من رغبتى فى الشفاء والحياة كل فلسفتى ، حذار جيماً ؛ إن الأعوام التى انحطت فيها حيويتى ، هى الأعوام التى طلقتُ فيها تشاؤمى ، وغريزة الوقاية هى التى صرفت عنى فلسفة اليأس والفاقة »

(يتبع) خليل هنداوى

اليوم يقول الخبير بالتجارة والصناعة :

إن كل المحاولات التى نجحت فى ارتفاع أسعار المنسوجات القطنية أو الصوفية فى أى بلد لا يمكن نجاحها فى بلد كمصر توجد بها أمثال :

محلات

الفرنوانى اخوان

وخاصة بالقاهرة بالعتبة الخضراء

فانها تحافظ دائماً على مبدأ حماية الوطنيين من الغلاء ...

مرض البول السكرى

نصيحة من مريض لله تعالى الى المرضى

مرضت بالبول السكرى . وبالتجائى الى كل الطرق لم استفد سوى استفادة موقتة تزول بزوال العلاج الى ان وفقنى الله تعالى الى بعض انواع بذور للنباتات لم اجدها الا بمحل عطارة

محمد طاهر الصاوى

بوكالة ابو زيد بالحمزاوى بمصر . ولم يكلفنى ثمنها سوى مبلغ عشرة قروش صاغ وباستعمالها مدة اربعة اسابيع كانت النتيجة مدهشة جداً ..... فقد ظهر من نتيجة التحليل ان البول طبيعى بعد ان كان بنسبة ٥٥ فى الألف لذلك اخذت على نفسى عهداً ان انصح بها المرضى واعتقد ان المحل المذكور لا يتأخر عن ارسالها لكل مريض خدمة للانسانية متى ارسل قيمة الثمن المذكور . احمد ك . م .